تاريخ النحو العبرى

يدين اليهود للكنعانيين بلغتهم العبرية ، وللعرب المخضرمين بتذوق هذه اللغة وأدابها ، وللمسلمين بوضع الكتب العلمية فى نحوها وصرفها ؛ وذلك أن العبريين هاجروا من شمال الجزيرة العربية حوالى منتصف الألف الثانى ق . م . إلى فلسطين أو أرض كنعان ، فوجدوا فيها شعباً سامياً راقياً ، يتكلم الكنعانية ويكتب فيها ، فلما استقر بالعبريين المقام أخذوا يتركون لغتهم الأصلية التى جاءوا بها ، والتى كانت عبارة عن لهجة آرامية ، ويستعملون مكانها لغة وطنهم الجديد ، شأنهم فى ذلك شأنهم اليوم فى البلاد التى يأوون إليها ، فهم يتكلمون الإنجليزية فى انجلترا وأمريكا ، والفرنسية فى فرنسا ، والألمانية فى ألمانيا ، وهلم جراً ، لكنهم كانوا فيها يفكرون ويكتبون متأثرين بلغتهم الأصلية ، لذلك اصطلح على تسمية هذه اللغة التى أصبحت خاصة بهم « اللغة العبرية » التى ظلوا يتكلمونها حتى القرن الثانى ق . م . ففى ذلك القرن اختفت من الحياة العامة ، ورضيت بالمعابد ، وصارت لغة طبقة خاصة من علماء اليهود ، وأخذت تحل محلها لغات أخرى ، منها السامية ومنها الأجنبية ، وأصبح اليهود فى الشام والعراق يتكلمون لغة تزداد مع مرور الزمن فساداً حتى أصبحت قبيل الإسلام عبارة عن خليط من العبرية والكلدانية واليونانية الدارجة التى لا أدب لها .

لكن حدث فى ذلك الوقت أن أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، وقام بعض يهود الجزيرة العربيـة وألبوا الناس عليه .

وكان من بين هؤلاء اليهود الذين ناصبوا النبي (ص) العداء ، وأجلوا عن قلب الجزيرة بنو قينقاع وبنو النضير ، ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم ، الذين نشأوا فى الجزيرة العربية تنشئة تتفق إلى حد ما والخلق العربى والمثل العربية من حيث الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء ، إلى جانب العناية بالفصاحة والبلاغة وقرض الشعر ، بخلاف إخوانهم فى الشام والعراق الذين كانوا يقاسون آلام الاستعمارين البيزنطى والفارسى . ولا أدل على رقى يهود قلب الجزيرة

وفيها يدخل التعريف بأل والتنكير بحذفها ، كما يدخل إبراز الضمائر والموصولات والإشارات وحروف العطف والقصر وما إلى ذلك .

المقاطع الصوتية إذن لا دلالة لها فى ذاتها ، أى مستقلة عن الكلمة التى تتصل بها ، وأما الأدوات النحوية فلها فى الأصل دلالتها الخاصة ، وهى تضاف إلى الألفاظ فتضيف إليها دلالة جديدة .

ولعبد القاهر فى دراسة هذه العوامل نظرات تطبيقية بالغة الدقة ، وفى تلك النظرات تتركز مقدرة الرجل على الإحساس والذوق والملاحظة ، وهو طبعاً لم يتناول الحديث عنها على هذا النحو المذهبى الذى بسطناه ، ولكنك عندما تقرأ كتابه تستطيع بسهولة أن ترجع كل ملاحظاته إلى هذه العوامل الثلاثة التى تحدثنا عنها ، وعندئذ يصبح من السهل أن تربط تفكيره بالتفكير الأوربى الحديث وتصل به إلى نهايته .

النظم عند الجرجانى إذن هو فيصل الإعجاز ، والنظم يكون بإدخال عوامل الصيغة على المفردات ، ولكن هـذه العوامل إن استطعنا حصر أنواعها لا نستطيع استقصاء وحداتها ، فكيف نفاضل بين تلك الوحدات ؟ نفاضل بالذوق ونحكم على كل حالة حكما خاصاً ، وهذا ما سنراه فى المقال التالى .

محمد مندور

من أن دواوين الأدب العربى حفظت لنا كثيرين من شعرائهم أمثال السموءل بن عادياء، والربيع بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض وغيرهم، الذين يدل نبوغهم فى الشعر على سلامة ذوقهم اللغوى، وتأصل العربية والطباع العربية فيهم، وقد نقلوها إلى إخوانهم فى العراق والشام؛ لذلك لم يكد يمضى نصف قرن على فتح المسلمين لتلك البلاد حتى أصبح اليهودى يجيد العربية قراءة وكتابة. ولم يقف أثر المسلمين عند هذا الحد، بل نجدهم يحولون اهتمام اليهود إلى كتابهم المقدس ليجادلوا من يجادلهم من ناحية، وليحافظوا عليه من التغيير والتبديل من ناحية أخرى، فضبطوه بالحركات كما ضبط المسلمون القرآن الكريم. وكانت النتيجة المحتومة لانتشار معرفة اللغــة العبرية ودراستها، وفهم الكتاب المقدس والعناية به، أن ولد شعر عبرى حديث انصرف صاحبه إلى فنون أخرى غير فنون الشعر العربى، التى كانت تتجلى فى ذلك العصر فى مدح السيف والفروسية والحب، ورثاء المجد الغابر، وهجاء الخصم الذى لا يستطيع الشاعر قتله أو الوصول إليــه، بينما يتغنى الشاعر العبرى بمديح الله ورثاء الأمة العبرية؛ ومن ثم تفنن فنظم للكنيس كثيراً من الشعر الدينى الذى يستخدم فى العبادة، ومع مرور الزمن وكثرة تأثر هؤلاء الشعراء بالعرب والعربية، أدخلوا القافية فى شعرهم بعد أن كان غير مقفى.

رأينا من هذا العرض الموجز كيف أن اليهود العرب كانوا رسل العقلية العربية والآداب العربية إلى العراق والشام، ورأينا أيضاً كيف أن الإسلام بعث الثقافة العبرية من جديد، بعد أن ماتت واندثرت ولم يتركها تنمو لوحدها، بل أخذ يطعمها بحيوية جديدة، حيوية فتية شابة نلمس أثرها لا فى الحضارة اليهودية التى أينعت فى أحضان الإسلام فى العصور الوسطى فحسب، بل فى فلسفة اليهود وأدابهم ولغتهم وتلمودهم. فالتاريخ يحدثنا أن اليهود لم يكتبوا كتباً علمية فى قواعد لغتهم إلا بعد أن تتلمذوا للعرب، وبعد أن نشأوا فى مهد الثقافة الإسلامية نشأة مكنتهم من فهم العلوم العربية على اختلاف أنواعها؛ ففى أواخر القرن التاسع والنصف الأول من العاشر الميلادى ظهر (سعديا) (٨٩٢ — ٩٤٢) وهو سعيد بن يوسف الفيومى فيلسوف اليهود فى القرن العاشر، فقد تأثر سعديا هذا لا بالعلوم اللغوية العربية فقط، بل بالعلوم الدينية الاسلامية أيضاً، وتشربت روحه بمذهب المعتزلة، حتى إنه استعان به عند معالجته للديانة اليهودية، ويطلق عليه نحويو اليهود، (أبا النحو العبرى)؛ فقد وضع مؤلفاً يقع فى اثنى عشر كتابا يسمى (كتب اللغة) وهو يعتبر أول مؤلف منظم فى قواعد اللغة العبرية، ويا للأسف ضـاع معظمه، وقد عالج فيه الأبجـدية وخواص الحروف الحلقيـة وإبدال الحروف وإدغامها، وتصريف الأفعال، كما عالج الأسماء والحروف، وقد وضع كتباً أخرى بالعربية والعبرية، لسنا فى حاجة إلى الإشارة إليها هنا؛ ونكتفى بذكر مؤلفه العظيم (أجرون) أى (معجم لغوى). فقد قسم فيــه الكلمة إلى (أصل) و (زيادة)، أو بمعنى آخر إلى أصل وعلامة إعراب، وقد أورد فيه قائمة تشتمل على تسعين كلمة عبرية وآرامية نادرة الوجود فى العهد القديم. فلفت بذلك النظر إلى وجوب العناية بالدراسة المقارنة التى عالجها فى نفس الوقت (يهوذا ابن قريش)، الذى ولد فى شمال غربى أفريقيا. وغير سعدياً ويهوذا نجد أمثال (مناحم بن سروق) اليهودى الأسبانى (حوالى عام ٩٦٠)؛ و(دونش بن لبراط) تلميذ سعديا، وقد ولد فى مدينة (فاس)، وهو يعتبر أول من قسم الفعل العبرى إلى خفيف (مجرد) وثقيل (مزيد)، كما أنه استخدم معلوماته فى اللغة العربية وطبقها على العبرية وخاصة العروض، واستعان باللغة العربية لفهم الكتاب المقدس، فقارن بين اللغتين، واستشهد على وجوب العناية باللغات الســامية

بذكر قائمة تشتمل على مائة وسبعين كلمة من الكتاب المقدس لن تفهم إلا عن طريق اللغة العربية .

ومن الشخصيات الأخرى التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ النحو العبرى (يهوذا بن داود) الملقب (حَيّوج) ، فقد اهتم هذا النحوى أولا باللغة العربية اهتماما عظيما يرجع إليه الفضل فيما وصل إليه من نتائج خاصة ، عند ما عرض للأفعال ذات الحروف اللينة أو اللفيفة المقرونة . وقد مهدت مؤلفاته وما كتبه المتقدمون من عرب وعبريين إلى ظهور العلامة أبي الوليد مروان بن جناح في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وقد عرض مروان هذا إلى ما ألّفه (حَيّوج) ونقحه ، كما أنه ألف كتابه المشهور (التنقيح) ، وهو يقع في جزءين ، الأول في القواعد واسمه (كتاب اللمع) ، والثانى عبارة عن معجم لغوى أسماه : (كتاب الأصول) ، سلك في تأليفه نفس الطريق الذى سلكه نحويو اللغة العربية . ويعتبر كتابه من أحسن الكتب التي وصلتنا في قواعد اللغة العبرية . وإذا استثنينا (مناحم) و (دونش) ، فكل علماء أسبانيا ألفوا باللغة العربية ، لذلك بقيت مؤلفاتهم غير معروفة لدى يهود أوربا القاطنين خارج البلاد الإسلامية ، حتى ظهرت شخصية (إبراهام بن عزرا) المتوفى عام ١١٦٧م ، فألف ثمانية كتب باللغة العبرية ، عرف بواسطتها يهود العالم المسيحى بمؤلفات أمثال حيوج ومن جاءوا بعده . وإلى جانب ابن عزرا قام يهوديّ أسبانى آخر اسمه (يوسف بن إسحق قمحى) في النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وخلفه ابناه موسى وداود قمحى ؛ وإن كانا لم يأتيا بجديد فيما كتباه عن النحو العبرى ، إلا أنهما يعتبران خير من ظهر في القرن الثالث عشر ، كما أن كتبهما تعتبر أحسن مما ألف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . أما القرن السادس عشر ، فيعتبر الحد الفاصل في تاريخ النحو العبرى ، فقد كان ذلك العلم حتى ذلك الحين وقفاً على اليهود لم ينازعهم فيه منازع حتى ظهرت حركة إحياء العلوم في أوربا ، وقربت بين اليهود والمسيحيين ، فأقدم الأخيرون على دراسة اللغة العبرية للعلم والعلم فقط ، ولفهم الكتاب المقدس فهماً علمياً صحيحاً على ضوء حركة الإصلاح الدينى التي أخذت تظهر في أوربا في ذلك القرن . وظهرت بوادر هذا الاهتمام في مؤلفات أمثال (يوحنا رويشلين) الذى ألف كتابا في قواعد اللغة العبرية عام ١٥٠٦ م . وقد ترك هذا الكتاب الذى وضع باللاتينية أثرا بعيداً في الجامعات الألمانية ، فأفسحت لهذه اللغة صدرها ، وأولتها عنايتها . وبعد موت (رويشلين) عام ١٥٢٢ ، ظهر في ألمانيا عالم يهودي يدعى (إليا لفيتا) ، وقد بذل مجهوداً كبيراً في سبيل نشر هذه اللغة حتى توفى عام ١٥٤٩

مضى القرنان السادس عشر والسابع عشر ، ولم يظهر فيهما من المؤلفات ما يستحق الذكر ، بخلاف القرن الثامن عشر الذى ظهر فيه اتجاه جديد ، وهو دراسة اللغة العبرية دراسة مقارنة ؛ وقد حمل لواء تلك النهضة المدرسة الهولندية ، وعلى رأسها (البرت شولتنز) المتوفى عام ١٧٥٠ و (شرودر) الذى فارق الحياة عام ١٧٩٨ . أما العبرية كما تدرس اليوم في الجامعات العالمية ، فإنها تدين في تطورها للمستشرق الألمانى (وليم جيزنيوس) (٣ فبراير ١٧٨٦ — ٢٣ أكتوبر ١٨٤٢) ، فقد نشر عام ١٨١٣ كتابه المشهور في قواعدها ، ولا أدل على النجاح الذى صادفه من أن العلماء الألمان أعادوا طبعه تسعاً وعشرين مرة ، وآخر طبعة حاول إخراجها الأستاذ (برجشتراسر) عام ١٩١٨ .

وغير هذا العالم المسيحى نجد في ألمانيا أن زعماء هذه المادة مثل (أفالد) و (الهوزن) و (شتادة) و (كاله) و (بروكلمان) ، كلهم من المسيحيين ، ويعتبر (كاله) زعيم علماء النحو العبرى في قرننا هذا .

دكتور فؤاد حسنين